تحية إلى صديق راحل

للاستاذ محمود رزق سليم

توفى الصديق الكريم ، عبد العزيز المراغى ، فى صباح الخميس ١٦ نوفمبر عام ١٩٥٠م . فخبا بوفاته نجم لامع ، وتوارت ومضات أمل ضاحك . وقد لاق ربه بعد مرض لم يمهله ، ولم يشفق عليه ، وهو شاب القلب ، فتى الفؤاد ، يقظ الرأى ، متوثب الرجاء ، يعد نفسه إعدادا ممتازا لمستقبل سعيد يخدم به دينه ومليكه ووطنه

وقد تلقى أصدقاؤه وعارفو فضله خبر وفاته بقلوب واجفة ، وعيون ذارفة ، ونفوس ولهى ، وشعروا كأن ساعدا قويا قد اختطفه من بينهم على غرة ، وبدا خالسة قد استلبته منهم على غير أهبة. ولكنه الأجل الموافى ، والقدر المحتوم، والموت النقاد .

وقد نعاه الناعون ما بدا لهم النعى ، ورثته الصحف ما عن لها الرثاء . وذكروا طرفا من أخبار حياته الحافلة وبقى منها الشىء الكثير

وقد كان عبد العزيز واسع الأفق فى نواح من الحياة كثيرة . فقد هيأت له ملابساته — مع ذكائه وفطنته — أن تنكشف له كثيرا من حقائقها ، كما دفعته إلى تجربة الأمور وملاحظتها . فاكتسب من وراء ذلك مرانة وخبرة ، وحنكة وحسن بصر بالأمور ومعالجتها

وقد كان منذ صغره مشغوفا بأخيه الأكبر الأستاذ الإمام المراغى ، ويرى فيه نموذجا ساميا يقتدى به . وقد جمعت بينهما ظروف الحياة ، أكثر مما تجمع بين شقيقين . فرحل معه إلى السودان ، وتعلم بكلية غوردون . ثم عاد إلى مصر فاندمج فى سلك طلاب الأزهر ، مبرزا بينهم حتى تخرج به بأرق شهاداته حينذاك . وأرسل فى بعثة علمية إلى إنجلترا ، فلبث بها زهاء خمسة أعوام ، ازداد فيها علما بالحياة ، ومعرفة بمذاهبها ومآتيها . وتخصص فى دراسة التاريخ الإسلامى وتاريخ الأديان ، وهما من أهم المواد الثقافية سقلا للأذهان ودعما للتجارب وتبليغا إلى الحق

ولما بلغ أخوه الأكبر مرتبة المشيخة الجليلة ، للمرة الثانية ، كان عبد العزيز — وبخاصة بعد عودته من إنجلترا — أشد سواعده القوية ، ومن أقرب مستشاريه إلى نفسه . فحمل معه شيئا من العبء ، على مقدار طاقته وجهده. وطبعى أن يصبح فى ذلك الحين ، موضعا للأمل والآملين ، كما كان محطا للنقد والناقدين

وقد استطاع عبد العزيز فى هذه الحقبة — وهو على كثب من أمور الأزهر — أن يدرسها ظاهرها وباطنها ، صريحها ومؤولها ، وأن ينكشف له منها مواضع الداء ، ويقدر الدواء . ولا أغلوحينما أذكر أن حدب عبد العزيز على الأزهر ، وشغفه به ، وأمله القوى فى أن يسمق بنيانه ، وترتفع أركانه ، كان شيئا فوق مكنة الطالب الذى يعشق معهده ، ويتعصب له

وقد عرف فيه إخوانه دماثة الخلق ، والمرح ، وبشاشة الوجه، وابتسامة الثغر، وعفة اللفظ على علاته — كما كان مطاوعا لكل ذى حديث ، ولو كان فيه إملال . لا يصده عنه إلا بكيس ورفق — وربما نعى عليه بعض خلطائه أنه يلقى عدوه كما يلقى صديقه ، فلا يرم ولا تنكر — وما كانت هذه منه إلا لرحابة صدره وحسن سياسته ، وحبه ائتلاف ما يستطاع باللطف تلافيه . ولذلك ظل كثير ممن ينقدونه ويحملون عليه ، يبجلونه لذاته ، ويحبونه لشخصه ، ويلقونه لقاء الإخوة الكرام

ولما اختير إماما للحضرة العلية الملكية تفتحت له من الحياة سبل جديدة ، ازداد بها مرانة ومعرفة ، وأخذ يخطو ويبرز نحو الصفوف الأولى بين رجالات الوطن . وكان إذ ذاك حركة دائبة : فيؤدى واجبه أمام مليكه ، ويلقى دروسه وخطبه ، ويذيع فى المذياع، ويكتب فى المجلات ، فى الأمور الدينية والاجتماعية والتاريخية

وقد كان عبد العزيز عالما أزهريا ، بالمعنى الذى يفهمه التاريخ والعرف . ومرجع ذلك — فيما أعتقد — إلى حبه العميق الأزهر ، وما فى الأزهر من علم ، وماله من تقاليد . فهو وإن بدا مترفا فى بعض حياته ، جانحا إلى الأخذ بأساليب العيش الحديثة . كان شديد الحنين إلى الحياة القروية الساذجة الهادئة التى تفضل البساطة فى كل شىء من ملبس ومأكل ونحوهما ، وهو سريع الجنوح إليها ماواتته الفرصة ولهذا كان أحب الأيام إليه ما قضاه

فى بلده بالصعيد . الرافعة .. بين عشيرته

وأهم خصوصيات العالم الأزهرى — فضلا عن معرفة الشريعة الغراء — حبه الجدل والمناقشة ، وقدرته على سوق الحجة والدليل ، وعدم تسليمه لخصمه فى سهولة ويسر . وقد كان عبد العزيز فى ذلك ، من الطراز الأول ، لا يكاد المرء يدخل معه فى نقاش حتى يفيض بالاعتراض والاستشهاد ، وبالتدليل والتعليل ، والموازنة والترجيح ، حتى يصل إلى قرار الحق يشهد بذلك تلاميذه الكثيرون فى كليات الأزهر ، وأصدقاؤه ، وأعتقد أن أصحاب الفضيلة الأجلاء أعضاء لجنة الفتوى ، قد لمسوا فيه هذه الخصوصية ، خلال عضويته بها

وكان ضليعا فى معرفة الشريعة السمحة وأحكامها ، خبيرا بمذاهب أئمتها على اختلافهم ، بصيرا بمذاهب الكلاميين من فقهائها . وقد أخرج كتابا فى حياة « تقى الدين بن تيمية الحرانى » ألقى فيه ضوءا على جهاد هذا العلامة فى سبيل دينه ، موضحا عقيدته ، مبينا أنها عقيدة السلف ، وأنها بعيدة عن مزالق المبتدعة من متطرفى الحنابلة . وقد سمعت ثناء مستطابا على هذا الكتاب من كثير من الفضلاء

وقد كان مؤرخا واعيا لتطورات التاريخ الإسلامى وتقلب دوله ، منقبا عن ذلك فى كتب التاريخ الإسلامى العربى منها وغير العربى

وكان أديبا بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعانى . فقد أوتى حافظة قوية كنت أغبطه عليها ، ملمة بشتى عصور الأدب وتقلباتها وحوادثها إلماما محمودا ، وكثيرا ما تجود بالأبيات والطرف الأدبية والأمثال ونحو ذلك ، عند أدنى مناسبة — وكان يطرب للدعابة اللطيفة والنكتة الرائعة — ولو على حسابه — ويأخذ حينذاك سبيله إلى المزح قائلا « لقد قتلتنا كثرة الجد » ولكنه سرعان ما ينحدر إلى سوق الحكم والنعى على الدنيا ، مع الرضا والاستسلام لقضاء الله وقدره

وكان كثير البحث فى معانى اللغة ، يحفظ من ألفاظها عددا تكتنز فيه المعانى ، أو يعبر عن المعانى الغريبة أو المستحدثة ، ويعنى بالألفاظ الطوافة فى اللغات ، وما كسبته فى كل لغة من المعانى . وأغلب الظن أن فى مسجلاته كثيرا منها

هذا إلى أنه كان كاتبا حسن الكتابة ، وخطيبا رائع الخطابة ، وممن أوتى مقدرة طيبة على تدبيج المقالات دينية واجتماعية وتاريخية . وهذه مقالاته فى مجلة « رسالة الإسلام » وغيرها ، خير شاهد

ولا نقول جديدا إذا نوهنا بدروسه الدينية وخطبه المنبرية ، فإنه أسبغ عليها سمة من التجديد ، وغذاها بما تفيض به نزعته الأدبية وثقافته الواسعة ، فخرجت بجديد أسلوبها ومعناها ، عصرية بريئة من السمت التقليدى القديم

ومنذ سنوات أخذ على عاتقه إخراج كتاب من أهم كتب الحديث والفقه والقضاء الإسلامى ، وهو كتاب « أخبار القضاة » لمحمد بن خلف بن حيان ، المشهور بوكيع . استعار نسخته الشمسية الوحيدة — على ما أعتقد — وأنفق فيها النفيس من وقته ، والمرجو من راحته ، حتى استقام له تقديمها إلى المطبعة . فأنجزت منها جزءين وبقى جزآن ، وقد تسنى لى الاطلاع على الجزءين المطبوعين — وإن كانا لم يخرجا إلى السوق بعد — فوجدته قد عنى فى الكتاب بالتصحيح والتعليق وشرح الغامض وتخريج الأحاديث ، بما يشهد بعلمه الغزير وأدبه الجم وإحاطته بمسائل الفقه ومواضع الحديث ومظان الأدب . وبما يشهد بصبره وبالغ جهده فى سبيل خدمة دينه وشريعته — ولعل أحد خلصائه وأحبابه ينجز من الكتاب ما بقى ، حتى يخرجه إلى القراء ، ويكون لهما أثرا خالدا وذكرا طيبا .

وقد عنى الفقيد أخيرا بموضوع من أجل الموضوعات وأشقها ، « وهو تطور الفقه الإسلامى متأثرا بأحوال الدول الإسلامية » وكان كثير التفكير فيه ، والحديث فى نواحيه ، ولا أدرى إلى أى مرحلة من مراحله بلغ .

وبعد ، فهذه عجالة فى ذكرى الفقيد العزيز دفعتنى إليها مقتضيات صداقة كريمة دامت عشرين عاما على أنبل ما تكون الصداقات

رحمك الله أيها العزيز رحمة واسعة ، وعزى فيك الوطن والأصدقاء

محمود رزق سليم
مدرس الأدب فى كلية اللغة العربية